صوت المرأة المسلمة

العدد : ١٩٠ الموافق في محرم ١٤١٨ هجري ٦ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : دور المرأة في الهجرة أخبار من السيرة وتعقيب عليها	بقلم : للشهيدة بنان الطنطاوي العطار

قال كَعْبُ بنُ مالكٍ ﷺ في حديثِهِ عن بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثّانية :

« ... فَنِمنا تلكَ الليلة مع قومنا في رحالِنا ، حتّى إذا مضى ثلثُ الليلِ خرجنا من رحالنا لِميعادِ رسولِ اللهِ ﷺ ، نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتخفين ، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العَقَبَةِ ونحنُ ثلاثةٌ وسبعونَ رجلاً ومعنا امرأتانِ من نسائِنا : نُسَيْبَةُ بنتُ كَعْب ، أمّ عمارة وأسماءُ بنت عمرو ، وهي أمُّ منيع... ».

سيرة ابن هشام

قالت أمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها :

« لَمَّا أَجْمَعَ أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة رَحَل لي بَعيرَه ثمّ حَمَلَني عليه ، وحملَ معي ابني سلَمَةَ في حِجري ثمّ خرجَ بي يقودُ بي بعيرَه ، فلمّا رأتْه رجالُ بني المُغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نَفْسُكَ غَلَبْتَنا عليها ، أرأيْتَ صاحبتَك هذه ؟ علامَ نتركُكَ تَسيرُ بها في البلاد ؟ فنزعوا خِطامَ البعيرِ من يده فأخذوني منه. وغضبَ عند ذلك بنو عَبْدِ الأسد ، رَهْطُ أبي سلمة ، فقالوا : لا والله ، لا نَتْرُكُ ابنَنا عندَها إذْ نَزَعْتُموها من صاحبنا. قالت : فتجاذبوا بُنَيَّ سَلَمَةَ حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبدِ الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. ففُرِّقَ بيني وبين زوجي وبين ابني. فكنتُ أخرجُ كلّ غَداةٍ فأجلسُ بالأبْطَح فما أزال أبكي حتى أُمْسيَ سنةً أو قريباً منها ، حتى مرّ بي رجلٌ من بني عمي ، أحدُ بني المغيرة ، فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تُخْرجونَ هذه المسكينة ! فَرَّقْتُم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت. وردَّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني ، فارتحلتُ بعيري ثمّ أخذتُ ابني فوضعتُه في حِجري ، ثمّ خرجت أريدُ زوجي بالمدينة وما معي أحدٌ من خَلْق الله... الخ ».

سيرة ابن هشام

قال ابن إسحاق :

« فلمّا أجمعَ رسولُ الله ﷺ الخروج ، أتى أبا بكرٍ فخرجا من خَوْخَةٍ لأبي بكر في ظَهْر بيته ، ثم عمدا إلى غارٍ بثَوْر - جبل بأسفل مكة - فدَخلاه وأمرَ أبو بكر ابنَه عبدَ الله بنَ أبي بكر أن يَتَسَمَّعَ لهما ما يقولُ النَّاسُ فيهما نهارَه ، ثمّ يأتِيَهما إذا أمسى بما يكونُ في ذلك اليوم من الخَبَر ؛ وأمر عامرَ بن فُهَيْرَةَ مولاه أن يرعى غنمَه نهارَه ، ثمّ يريحَها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماءُ بنت أبي

بكر تأتيهما من الطعام إذا أمستْ بما يُصلِحُهما...

فأقام رسولُ اللهُ ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر... حتى إذا مضتِ الثّلاث ، وسكنَ عنهما النّاس ، أتاهما صاحبُهما الذي استأجراه ببعيريْهما وبعيرٍ له ، وأتتْهما أسماءُ بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسُفْرتهما ، ونَسِيَتْ أن تجعلَ لها عِصاماً - أي رِباطاً -. فلمّا ارْتَحلا بسفرتهما ذهبتْ لِتُعَلّقَ السُّفرةَ فإذا ليس لها عصام ، فتَحُلُّ نطاقَها فتجعلُه عصاماً ، ثم علّقَتْها به.

فكان يقالُ لأسماء بنت أبي بكر : ذات النِّطاق لذلك.

قال ابن هشام :

وسمعتُ غيرَ واحدٍ من أهل العلم يقول ذاتَ النِّطاقَيْن. وتفسيرُه : أنَّها لمّا أرادتْ أن تعلّق السّفرة شقّت نطاقَها باثْنَيْن ، فعلّقت السفرة بواحد وانتَطَقت بالآخر ».

سيرة ابن هشام

قالت أسماء بنت أبي بكر :

« لمّا خرج رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ﷺ أتانا نفرٌ من قُريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجتُ إليهم : فقالوا : أينَ أبوكِ يابنتَ أبي بكر ؟ قلتُ : لا أدري والله أينَ أبي. قالتْ : فرفعَ أبو جهلٍ يدَه ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطَمَ خَدّي لطمةً طرحَ منها قرطي ».

سيرة ابن هشام

وقالت أسماءُ أيضاً :

« لمّا خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه ، احتَمَلَ أبو بكر مالَه كلَّه ، ومعه خمسةُ آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطَلق بها معه. قالت : فدخل علينا جدّي أبو قحافة ، وقد ذهبَ بصرُه فقال : والله إنّي لأراه قد فجعكم بماله مع نَفْسِه. قالت : قلتُ : كلاّ يا أبتِ ! إنّه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت : فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوّة في البيت ، التي كان أبي يضع مالَه فيها ، ثم وضعتُ عليها ثوباً ، ثم أخذتُ بيدِه ، فقلتُ : يا أبتِ ، ضَعْ يدَك على هذا المال. قالت : فوضعَ يده عليه فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغٌ لكم. ولا واللهِ ما تركَ لنا شيئاً ، ولكنّي أردت أن أُسَكّن الشيخَ بذلك ».

سيرة ابن هشام

وقال أنَسٌ كما نقل البَيْهَقي في الدّلائل :

« قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة ، فلما دخلها جاء الأنصارُ برجالِها ونسائِها فقالوا : إلَيْنا يا رسول الله.

فقال : « دَعُوا الناقة فإنّها مأمورة »

فبركتْ على باب أبي أيوب ، فخرجتْ جَوارٍ من بني النَّجَّار يَضربْن بالدُّفوف وهنّ يَقُلْن :

نحنُ جوارٍ منْ بني النَّجَّارِ يا حَبَّذا محمدٌ منْ جارِ

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال « أتحبّونني ؟ » فقالوا إي واللهِ يا رسول الله. فقال : « وأنا والله أُحبّكم ، وأنا والله أُحبّكم ، وأنا والله أُحبّكم » ».

البداية والنهاية لابن كثير

قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

« لمّا نزل عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ في بيتي نزلَ في السُّفْل ، وأنا وأمّ أيوب في العُلْو ، فقلت له : يا نبيّ الله ، بأبي أنتَ وأُمّي ، إنّي لأكره وأُعظِمُ أنْ أكونَ فوقَك وتكونَ تحتي ، فاظْهَرْ أنتَ فكنْ في العُلْو ، وننزل نحن فنكون في السفل ؛ فقال : يا أبا أيوب ، إنّ أرفق بنا وبمن يَغْشانا أن نكونَ في سُفْل البيت.

قال : فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن ؛ فلقد انكسر حُبّ - أي جَرّة - لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأمّ أيوب بِقَطيفَةٍ لنا ، ما لنا لحافٌ غيرها نَنْشَف بها الماء ، تَخَوُّفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

قال : وكنّا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردَّ علينا فضلَه تَيَمَّمْت أنا وأمّ أيوب موضعَ يده ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة... ».

سيرة ابن هشام

❁ ❁ ❁

يكفي أن نُلقيَ نظرة سريعة على النّصوص المتقدّمة لنرى بوضوح دورَ المرأة المسلمة في الهجرة.

فالمرأةُ المسلمةُ كانت موجودةً في بَيْعة العقبة الثّانية التي مَهّدتْ لهجرة رسولِ الله ﷺ .

والمرأة المسلمةُ قد بادرتْ مع الرّجلِ المسلمِ إلى الهجرةِ بالفعل ، عندما أمر الرّسولُ ﷺ أصحابَه بالخروج إلى المدينة ، وحملتْ مع الرّجل المسلم نصيبَها من الخَطَر والألَم والمشقّة كما رأينا في مِثالِ أمّ سلمة رضي الله عنها.

والمرأةُ المسلمةُ كانت أهلاً لتُؤتمن على سِرّ هجرة الرسول ﷺ حيثُ لم يَعلم بهذا السرّ إلا بضعةُ أشخاصٍ منهم عائشةُ وأسماء ، وحيثُ كان المشركون يَمْكرون بالرسول ليُثْبتوه أو يَقتلوه أو يُخرجوه -

كما يذكر القرآن الكريم -.

والمرأةُ المسلمةُ قد أسهمتْ في مخطّط هجرة الرسول ﷺ ، وفي إنجاح هذه الهجرة ، وفي حَمْل تبعاتِها في مالها ونفسها ، كما رأينا في مثالِ أسماءَ رضي الله عنها ، التي كان لها دورُها في تزويد الرسول وصاحبه بالطّعام في الغار ، وفي تجهيزهما للسَّفر ، والتي أصابَها ما أصابَها على يدِ أبي جهلٍ من العدوان والإهانة ، والتي فَقدت هي وأختُها وجهَ الأب ، وفَقدتا ما يُصلِح شؤونَهما من المال في وقت واحد.

والمرأةُ المسلمةُ كانت في استقبال الرسول ﷺ في المدينة كما كانت في وداعه في مكة... لقد خرجتِ المرأةُ المسلمة مع الرجلِ المسلم لاستقبالِ المهاجرِ العظيم ، تَتَفَجَّر في قلبها عواطفُ الإيمان ، ومشاعر السرور بنجاته ، ووصوله إلى قلعة الدعوة الجديدة : المدينة المنورة.

ولقد ظفرتِ المرأة‘ المسلمةُ وسعدت في المدينة المنورة ، كما ظفر الرجل المسلم وسعد ، بشرف استضافةِ رسول الله ﷺ ، وخدمته ، والسهر على راحته ، والتماس البركة بوجوده ، كما يظهر لنا ذلك في أمّ أيوب رضي الله عنها.

ولم يكن للمرأة المسلمةِ دورُها المذكورُ في الهجرة فقط ، ولكنْ كان لها دورُها المذكور في مختلفِ المواقفِ والمراحلِ عَبْرَ تاريخِنا الإسلاميّ الزاهر ، منذُ أنزلَ اللهُ على رسولِه الكريم كتابَه الخالدَ ليُخْرِجَ الناسَ به من الظلماتِ إلى النّور بإذنِ ربّهم إلى صراطِ العزيز الحميد ، ومنذُ وقفتْ السيدةُ خديجةُ رضي الله عنها وقفَتَها العظيمة بجانبِ الزوجِ العظيم والرسولِ العظيم تقولُ له كلماتِها الباقياتِ التي اهتَزَّ لها وترنَّمَ بها الزّمنُ والتاريخ : « كلاّ واللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً. إنّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَقْري الضَّيْفَ ، وتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتكْسِبُ المَعْدوم ، وتُعينُ على نَوائب الحقّ » ، ومنذُ اختلطَ في بطحاءِ مكّة دمُ سميّة بدمِ ياسرٍ رضيَ الله عنهما ، وهما يَخُطّان معاً صفحة الصَّبْرِ على الشَّدَّةِ والبلاء ، والتصميم على العقيدةِ والفداء ، والاستعلاءِ على الباطلِ والطاغوت... إلى ما لا يُحْصى من المواقفِ والنماذجِ الرائعةِ عَبْرَ العصور... حتّى فَقَدْنا النُّورَ الإلهيَّ في قلوبِنا وعقولِنا ، وغلبتْنا أهواؤنا على ديننا ، ودنيانا على آخرتِنا ، وصارت المرأة ، وصار الرجل أيضاً - إلا من عصم الله - إلى ما نحن عليه الآن من عبودية للباطل والطاغوت ؛ عبوديةٍ لهما في بلادنا ، وعبوديةٍ لهما في عالمنا... كأننا لسنا من هذا القرآن ، ولا من هذا الرسول ، ولا من هذا التاريخ المتألق برجالِه ونسائه على السواء.

❋ ❋ ❋

وكم يُؤلمني - أيها الأخوات - أن نتحدَّثَ عن تاريخنا وذكرياتنا الإسلاميّة الخالدة ، وقد انفَصلْنا بحياتنا عن هذا التاريخ وهذه الذّكريات.

كم يؤلمني أن نتحدثَ عن تاريخنا وذكرياتنا ، وقد غدتْ حياتُنا بواقعها الراهن تكذيباً وإهانةً لهذا التاريخ وهذه الذكريات.

كم يؤلمني أن نتحدثَ عن تاريخنا وذكرياتنا ، بغير روح التصميم على أن نعيدَ الصِّلة الحيَّة الفاعلة بيننا ، وعلى أن نجعلَ حاضرنا يناسبُ ماضينا البعيد.

كم يؤلمني أن نتحدّث عن الهجرة ولا نُفَكِّر بهجرةٍ جديدةٍ تَنْقُلُنا وتنقلُ أمّتنا وبلادنا من حالٍ إلى حال ، كما نقلتْ تلكَ الهجرةُ أصحابَها ، ونقلتْ مجتمعهم وعالمهم ، ونقلتِ التاريخَ البشريَّ كلَّه من حال إلى حال...

إنّنا بأمسِّ الحاجةِ إلى هجرةٍ جديدة ، هجرةٍ تَتَمَثَّل فيها روحُ الهجرةِ الأولى...

ألا فلْنهاجرْ - أيها الإخوة والأخوات - إلى اللهِ بقلوبنا وعقولنا وحياتنا ، فلْنهاجرْ إلى كتاب اللهِ وسنّة رسوله ﷺ ، وإلى هداية الإسلام في كلِّ مجال ، ولْننطلقْ بالإسلام ، ومنَ الإسلام ، لنعيد بناء أنفسنا من جديد ، وبناء مجتمعنا من جديد ، وبناء عالمنا من جديد.

إن هذه الهجرة ، بهذا المعنى ، هي سبيلُنا ، وسبيلُ أمّتنا وبلادنا ، وعالمنا ، إلى التحررِ المعنويّ والماديّ ، وإلى خَيْرَي الدّنيا والآخرة.

ولقد كان للمرأة المسلمة دورُها الكبير في هجرتنا الأولى ، وفي صُنع تاريخنا المجيد ، فليكنْ للمرأة المسلمة الآنَ دورُها الكبير أيضاً في الهجرة الجديدة إلى الله والرسول ، وفي خدمة الإسلام والمسلمين ، وخدمة العالم والإنسان بالإسلام ، وفي صُنع التّاريخ مرّةً أخرى ، كما صنعناه من قبلُ ، بشموخه وجلاله ، ورائع ذكرياته وآثاره الباقية على الأيام.

وليست هذه الدعوةُ التي ندعوها مجرَّدَ كلماتٍ في تعليقٍ عابرٍ أو مقال ، ولكنّها حقيقةٌ في قلوبنا وأفكارنا وأعمالنا إن شاءَ الله... حقيقةٌ نُطْلِقُها ونربطُ بها المستقبلَ والحياة.

فابسُطْنَ أيديَكُنَّ إلينا أيها الأخوات ، ولننطلق معاً بروح جديدة ، وإرادة جديدة ، وخطواتٍ جديدةٍ في سبيل الله.